دلالات المكـــان
للمـــدن العـــربيـــة الاسلاميـــة في العهـــود الاسلاميـــة الاولى

د.جمال حسن العتابي
باحث أكاديمي عراقي

يمكن القول ان ميلاد المدينة الاسلامية بدأ بـ "يثرب" وبعد الهجرة النبوية الشريفة إليها، وخلال الاعوام العشرة التي قضاها الرسول الكريم (ص) في يثرب، حوّل هذه الواحة من عدة قرى متقاربة الى وحدة حضارية واحدة، ومنحها مفهوم المدينة، وأوجد معظم الأسس لما سيظهر في المدن المقبلة من مؤسسات، تكاملت صورتها على أيدي الرسول "ص" وكسبت بذلك اسمها الجديد "المدينة" لينسى الناس بسرعة اسمها القديم "يثرب" الذي غاب في التاريخ.يذكر لنا ياقوت الحموي في معجم البلدان ان المدينة تقع في حرة سبخة الأرض، ولها نخيل كثيرة ومياه، وزروعهم تسقى من الآبار، وأحد جبل في شمال المدينة، وهو اقرب الجبال إليها، ووادي العميق فيما بينها وبين الفرع.

ومن المؤكد ان الرسول "ص" كان مدركا بعمله طبيعة الأرض البركانية التي تحيط بالمدينة وهو ما وفر لها خصوبة عالية في التربة كأحد المستلزمات الأساسية في استثمار الأرض وزراعتها، لذا قال الرسول "ص" حين توجه الى الهجرة: اللهم انك قد أخرجتني من احب أرضك الي فأنزلني احب ارض إليك، فانزله المدينة، فلما نزل قال: اللهم اجعل لنا بها قرارا ورزقا واسعا".

كانت صورة يثرب قبل الهجرة صورة تجمعات سكنية متعددة، للأوس والخزرج وبعض اليهود، تتوزع في واحة منبسطة خصبة التربة والماء تحيط بها حرات بركانية، وحين نزل الرسول محمد "ص" المدينة كانت في خاطره دون شك صورة مكة والتفاف المنازل فيها حول المركز الذي تقوم فيه الكعبة، وتتفرع منه الطرق فنزل الرسول منزلا في الوسط، وبجانبه المسجد الجامع يتصل به الى الغرب، وبنى المهاجرون منازلهم حول هذا المركز، وهكذا ظهرت النواة الاولى في تخطيط المدينة الاسلامية، بأن يقوم المسجد الجامع في المركز ودار الامارة في جانبه، ولأجل زيادة العمران وتكثير الزرع، بدأ الرسول "ص" بالدعوة لهما: من احيا أرضا ميتة فهي له..

ثم ظهرت مع أعوام الفتح الاسلامي الاولى مدن نهلت من المبادئ الأساسية التي نهل الرسول "ص" وهي ما تعرف بالمدن الاسلامية المبكرة كالبصرة والكوفة،وواسط والقيروان ، والفسطاط.

وتلقي الدراسة الضوء على اثر التحريات الطوبوغرافية في اختيار مكان تلك المدن، ويظهر هذا الأثر واضحا في تأسيس البصرة والكوفة وواسط، في حين لا يترك هذا العامل بصماته واضحة في المدن الاسلامية الأخرى، ولعل من المفيد الاشارة الى ان العديد من دراسات المستشرقين أغفلت او أنكرت مساهمة العرب في التحري الطوبوغرافي كضرورة لازمة لإنشاء المدن.

ولاشك في أن عوامل عديدة لسنا بصدد تناولها الان، وراء هذه المواقف من الحضارة العربية الاسلامية، لذا فان هذه الدراسة تحاول من خلال النصوص التاريخية الوصول الى نتائج تفنيد تلك المزاعم والآراء التي تنفي وجود عقل مخطط او معماري عربي واسلامي آنذاك.

ان استقرار العرب المسلمين وزيادة عددهم في العراق دفعهم الى البحث عن وسائل جديدة ومتطورة تساعدهم على البقاء على الأرض وتمكنهم من استثمار خيراتها وثرواتها، والبحث عن شروط افضل للسكن والاستقرار. وظل هذا التوجه منذ الوهلة الاولى التي بدأ بها العرب المسلمون التفكير في انشاء أمصار جديدة في العراق، وهذا ما يفسر دعوة عمر بن الخطاب "رض" لسعد بن ابي وقاص ان ينزل المسلمين "موضعاً عدناً" بعد معركة القادسية، وقد استعار عمر "رض" كلمة "عدنا" من القرآن الكريم "وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن" (سورة التوبة/٧٢). ويبدو ان اختيار مفردة "عدن" جاء في ضوء الدلالات الحضرية التي تكتنز بها المفردة، إذ تشير معاجم اللغة، الى ان فلانا عدن المكان، أي أقام، وعدنت البلد:توطنته، ومنه المعدن، مكان كل شيء، اصله ومبتدأه .

لقد ادرك الخليفة عمر بن الخطاب، أهمية الاستقرار فأمر في السنوات الاولى من خلافته بتأسيس "أمصار" يستقر فيها المقاتلة وعوائلهم وتكون قواعد للادارة، ولتحركات الجيوش العربية، وسرعان ما نمت فيما بعد حياة اقتصادية وفكرية عميقة واسعة طغت بمرور الزمن على السمة العسكرية وأصبحت من أهم المراكز الحضرية، لا في دولة الاسلام فحسب، وانما في العالم المتحضر عموما.

ومن المرجح ان هذا الادراك المبكر لدى بن الخطاب "رض" لم يكن بمعزل عن معرفة بشروط بناء المدن واختيار مواقعها، فالحضارات الاولى التي بدأها عتبة بن غزوان في بناء مدينة البصرة، انه كتب الى عمر بن الخطاب "رض" يعلمه نزوله "الخريبة"، فكتب بن الخطاب: اجمع أصحابك في موضع واحد، وليكن قريبا من الماء والمرعى، واكتب الي بصفته، فكتب اليه أني وجدت أرضا كثيرة القصبة في طرف البر الى الريف، ودونها مناقع ماء فيها قصباء، فلما قرأ الكتاب، قال: هذه ارض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب، وكتب اليه ان إنزلها الناس فأنزلهم اياها."

في ضوء ما تقدم، يمكننا القول: ثمة عناية بالمكان والسطح بدأها العرب المسلمون الأوائل، وهناك معرفة بالدخول في مغامرة لتلك الزوايا فأخذوا على عاتقهم تقديم الافكار وتبني ماليلها لتصبح بعدئذ ملموسة التأثير، فالرسائل المتبادلة بين عمر"رض" وعتبة لا تؤدي الى نهايات مطلقة، انما هناك دراسة، وتحقق فالقول:"اكتب الي بصفته" لا تعني الآذن بحل الرحال متصل انما هناك خطوة أخرى، تتطلب التأني، وانتظار الرد.

يجمع المؤرخون على ان البصرة من اقدم المدن التي بناها العرب المسلمون، ولا تزال باقية الى الان، ومع ان هناك ضرورات عسكرية لتأمين طريق القوافل تقف وراء بنائها، الا ان اللافت للانتباه، ان تصيير المدينة لم يحدث اعتباطاً،بل أخذ المخطط بنظر الاعتبار توفر الشروط المعمارية للبناء، وعلى الرغم من تعدد معاني "البصرة" في اللغة، الا ان هذه المعاني جميعا ترتبط بالنتيجة بطبيعة ارض البصرة، إذ تردد معنى البصرة بين الأرض الرخوة او الغليظة الضاربة الى البياض او التي فيها حجارة تقلع، وتقطع حوافر الدواب. وذكر المسلمون حين وافوا مكان البصرة للنزول فيها نظروا إليها من بعيد. وأصبروا الحصى عليها.فقالوا: ان هذه ارض بصرة ، يعنون حصيبة، فسميت بذلك، وقيل:هي الأرض الطيبة الحمراء.

إزاء متغيرات الخيارات حيث التصادمات تبلغ ذروتها بين تقاليد ماضية، وأمام شروط يمكن البرهنة عليها، باعتبار انها لم تولد من فراغ، كان اختيار المكان لتأسيس البصرة بعيدا عن ارض الجزيرة قد تحول الى ظاهرة أثارت جدلا، فبعد سبعة قرون تقريبا، يقدم ابن خلدون في "مقدمته" نظريته فيما يجب مراعاته في أوضاع المدن، فيقول: اعلم ان المدن قرار تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، ولما كان ذلك للقرار والمأوى، وجب ان يراعى فيه رفع المضار بالحماية من طوارقها، فأما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وان يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة، اما على هضبة متوعرة من الجبل، واما باستدارة بحر او نهر بها، حتى لا يوصل إليها الا بعد العبور على جسر او قنطرة، فيصعب منالها على العدو، ويتضاعف امتناعها وحضنها.

ان التجارب الاولى في بناء المدينة العربية لم تحاول القفز فوق الأهداف بحثاً عن أقاصي المغامرة في الدفع وفي النتائج، وعلى عكس ظاهرة الأسلوب الواحد والاستنساخ، والتكرار، لذا وجدنا ان إدارة الدولة، أرادت الخوض في تجربة بناء المدينة للبرهنة على مدى ما تمتلكه من تجارب لا تقودها نحو فضاء يشي بالتجريب وطقوسه فحسب، بل تقديم نماذج تضمر كثافة العناية بعالم المكان الطوبوغرافي بما يحمل من دلالات تمثل ظهيرا ساندا للجغرافية، في بيئة تستوفي شروطها المعمارية من الماء والطين والحصى والرمل. ان هذا النوع من الصياغات تفجر منذ العقود الاولى للقرن الهجري الأول، لتؤكد إرادة "المعمار" في وقف التناقضات الثانوية، وهناك اشارات عديدة وردت في كتب البلدانيين، وهم يقدمون وصفا ايجابيا لحالة من الرخاء والنمو والازدهار في حياة البصريين، بعد تأسيسها بقرون من الزمن، فالبصرة بنظر المقدسي، قصبة سرية أحدثها المسلمون وهي شبه طيلسان قد شق إليها من دجلة نهران:نهر الابلة، ونهر المعقل، فاذا اجتمعا مدا عليها، وتشعب إليها انهار الى ناحية عبادان وناحية المذار.

وشهدت البصرة تطورات اجتماعية واقتصادية كبيرة عبر قرون متعددة، على الرغم من جميع الظروف الصعبة، فكانت مركز إدارة الفتوحات الاسلامية، وصارت المنطقة المحيطة بها من أهم المناطق الزراعية، ثم تحولت خلال الفترة العباسية الى مرفأ وميناء تجاري، فتطورت العلاقات الاقتصادية داخل المدينة واقبل عليها الناس من مختلف البلدان لمزاولة الاعمال.

وفي التاريخ العربي الاسلامي مثال آخر على اعتماد التحري الطوبوغرافي في تأسيس المدن، وهو المتمثل بـ "الكوفة". هنا يعد استثمار طوبوغرافية المكان على نحو مميز منجزاً حضاريا مهما، على صعيد توظيف المكان او عناصره او أشكاله في البناء او العمل المعماري.

ينقل البلاذري روايات عديدة عن المحاولات الاولى لاختيار الكوفة منزلا للجند يقيمون به، فيقول: ان المسلمين استوخموا المدائن واستوبؤها، فكتب بذلك سعد بن ابي وقاص الى عمر بن الخطاب، فكتب اليه عمر ان تنزلهم منزلاً غريبا فارتاد كويفة ابن عمر، فنظروا فاذا الماء محيط بها فخرجوا حتى أتوا موضع الكوفة.

وفي رواية أخرى يذكرها البلاذري، ان ابن الخطاب "رض" كتب الى سعد يأمره ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا وان لا يجعل بينه وبينهم بحرا، فأتى الأنبار واراد ان يتخذها منزلا، فكثر على الناس الذباب، فتحول الى موضع آخر، فلم يصلح، فتحول الى الكوفة، فاختطها واقطع الناس المنازل، وانزل القبائل منازلهم، وبنى مسجده، وذلك في سنة سبع عشرة للهجرة.

ونعود هنا للموضع الـ "عدن" الذي أشرنا اليه في أول البحث، إذ كتب عمر الى سعد بالقول: ان العرب بمنزله الابل لا يصلحها الا ما يصلح الابل،فارتد لهم موضعا عدناً، ولا تجعل بيني وبينهم بحرا،. وغايتنا في هذا استعادة .مناقشة رأي ابن خلدون فيما كتبه في مقدمته عن "المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب الا في الاقل" الذي يرى ان قلة مراعاة العرب لحسن الاختيار في اختطاط المدن"المكان، طيب الماء، المزارع، المراعي". يعود الى ان العرب يراعون مراعي ابلهم خاصة، ولا يبالون بالماء، طاب أم خبث".

ويبدو ان ابن خلدون صاغ على الأغلب رأيه في هذا الفصل، بناء على وصية عمر تلك لابن ابي وقاص.

ونعتقد ان مقايسة من هذا القبيل تعد ابتعاداً عن الموضوعية التي عرف بها ابن خلدون. لما عرف عن بحثه الدائب عن الدليل، والاحتكام الى الواقع والتفحص الدقيق في الرواية، لان العرب والمسلمين حينما اختطوا تلك المدن، فانهم لم يختطوها اعتباطا او كيفما اتفق، وانما كانوا يتخيرون مواضع مدنهم، ويتفحصون امكنتها تفحصا طوبوغرافيا، لذلك وضعوا شروطا وقواعد لبناء المدن وتخطيطها.

وكما يذكر الدكتور شاكر مصطفى ان من البديهي ان لا يظهر الفكر العمراني الاسلامي في القرنين الاول والثاني الهجريين،فقد كان هذان القرنان مجال تفاهم وتفاعل بين مختلف الحضارات التي اخذ العرب في استيعابها.

وفي دراسة حديثة عن الكوفة يتوصل هشام جعيط الى استنتاجات بالغة الأهمية، ذات علاقة بالمكان والظروف الطبيعية المحيطة به إذ يقول: ان ما يجعل الكوفة ذات قيمة استثنائية بالنسبة للسكن البشري كونها محاطة من كل جانب بمناظر جغرافية تختلف شديد الاختلاف: الصحراء والنهر والبطائح والبحيرة المالحة دون التأثر بمساوئها، وفي إمكان هذه الصلة الممتازة بين الصحراء والأرض الزراعية والمستقرة المائية، ان تنشئ نوعا من التكامل ينبغي التعمق والتمعن فيه.

ومثلما اختلف العرب في معنى "البصرة"، كانت "الكوفة" موضع اختلاف في المعنى، الا أنها جميعا تلتقي في دائرة واحدة لا تبتعد عن المكان كذلك، فالكوفة: من تكوف الرمل، والاستدارة، او لانها قطعة من البلاد وقيل الكوفة لكونها رملة حمراء. او لاختلاط ترابها بالحصى، وقيل التكوف: الاجتماع، وبعضهم يسمي الأرض التي فيها الحصباء من الطين والرمل كوفة".

ومن الثابت القول: ان الكوفة تقع في المكان الذي يدلع البرلسانه في الريف المروي. في موضع متقدم من البر اذن، على سطح يقع فوق شاطئ الفيضان للفرع الرئيس للفرات في ذلك العصر، على ارتفاع يناهز متراً من مستوى سطح البحر، ويرتفع الموضع فوق النجاف غربا، الذي كان بمثابة الحوض المالح، وكذلك فوق البطائح جنوبا التي كانت تمتد حتى البصرة وهذه البطائح عبارة عن مساحة غارقة في الماء حيث ينبت القصب والحلفاء، ويبدو ان مصدر الحصباء هو الرسوبات النهرية، اما الرمل الأحمر فهو متأت من الغرب.

ومن الواضح ان الكوفة لعبت دورا مهماً في التاريخ العربي الاسلامي، أسهمت خلال الفترات المبكرة في حياتها إسهاما كبيرا في الجوانب الاقتصادية والسياسية والفكرية، وبلغت مرتبة كبيرة لذا وصفها المقدسي بالقول: الكوفة قصبة جليلة حسنة البناء جليلة الأسواق كثيرة الخيرات، جامعة رفقة، النهر على طرفها قبل بغداد، ولها آبار عذبة، حولها نخيل وبساتين ولها حياض وقنى.

وتشير المصادر التاريخية الى ان الحجاج كان معجبا بموقع واسط، نتيجة أداة أهمية الموقع من الناحية العسكرية، يدل على ذلك مناعة المدينة، وعدم استطاعة أحد دخولها الا من الأبواب لانه أحاطها بخندق وسورين. ويشكل نهر دجلة في شرق الموقع، والفرات في غربه أهمية ستراتيجية حربية ممتازة.

ان اختيار الموقع تم إذن بدراية تامة من قبل الحجاج، كما يذكر ذلك ياقوت الحموي: فبعد ان فرغ الحجاج من حروبه استوطن الكوفة، فقال لرجل ممن يثق بعقله: إمضِ وابتغ لي موضعا في كرش من الارض ابني فيه مدينة، وليكن على نهر جارٍ، فاقبل الرجل ملتمسا ذلك حتى سار الى قرية فوق واسط بيسير، يقال لها واسط القصب فبات فيها، واستطاب ليلها، واستعذب أنهارها واستمرأ طعامها وشرابها فكتب الى الحجاج بالخبر ومدح له الموضع فكتب اليه: اشتر لي موضعاً ابني فيه مدينة. وتشير المصادر كذلك الى ان الحجاج خرج بنفسه يبحث عن الموضع، فاختار واسط. ومما لاشك فيه ان الحجاج أراد ان تكون مدينته في مكان خصب لا مكان استغلال أراضيها لتكون مرفقا للرعية ومصدر رزق لها، كما أرادها ان تكون موردا أساسيا لإيرادات الدولة من الضرائب التي تفرض على منتوجات تلك الاراضي.

ان اختيار موقع واسط على نهر دجلة وفر لها أراضي خصبة تمتد بين دجلة والفرات وهو أحد الأسباب في ازدهارها الاقتصادي في القرون التالية من تأسيسها، اذ عبر البلدانيون على ملامح هذا الازدهار في وصفهم المدينة، فذكر الاصطخري انها خصبة كثيرة الشجر والنخيل والزرع وليس لها بطائح وارض، ورساتيعتها متصلة معمورة. ومدينة واسط كما يقول ابن حوقل: على جانبي دجلة تشقها بنصفين، والنصفان متقابلان، وهي مدينة تحيط بحدها الغربي البادية بعد مزارع يسيره، وهي خصبة كثيرة الشجر والنخل والزروع واصح هواءً من البصرة. ووصفها المقدسي بانها: قصبة عظيمة كثيرة الخير ومعدن السمك.. صحيحة الهواء عذبة الماء حسنة السواد.

الهجر: رواية للكاتب بيكو لاير

عرض: فردريك وآن ماري
ترجمة: عبد علي سلمان

في كاليفورنيا يقوم جون ماكميلان وهو رجل انكليزي وواحد من مثقفي جامعة أوكسفورد بالعمل على تحضير اطروحة عن الشاعرالايراني الصوفي "رومي"الذي عاش في القرن الثالث عشر.وعلى الرغم من ان ابيات الشاعر الرائي المفضلة لدى جون ماكميلان كانت "الغموض لن تجد السبيل لحله ذلك ان العين يصيبها العمى حالما ترغب في معرفة السبب "ومع ذلك فانه لم يتمكن من ايجاد السبيل لعيش حقيقة البصيرة الروحية .

وهكذا يقوده بحثه عن المخطوطات المفقودة لهذا الشاعر الى عدة بلدان منها الولايات المتحدة التي يلتقي فيها كاميليا التي تمثل النموذج التقليدي لفتيات كاليفورنيا فهي تعشق المغامرات ولم تكن محظوظة في الحب .وقد احست كاميليا بانجذابها الى جون لكنها لم تظهر ذلك لفترة طويلة. وفي هذه الاثناء كان يصارع مخاوفه من ان يقوم بالتخلي عن نفسه في سبيل الحب فقد كتب مرة "بالنسبة للصوفيين فان قلب الحياة هو الغموض أي كل شئ لانعرفه .واننا غامضون حتى لانفسنا، ويؤمن الصوفيون بأن جزءا من انفسنا تمتصه الشعائر والعادات التي نقوم بها يوميا في حين ان الجزء الاخر الاعمق فينا يكون بامس الحاجة لاي شئ يعيدنا الى الوراء .للغريب الذي نشعر ان صوته هو صوتنا نحن "ولقد احس جون بالتغير الكبير في عالم الرمال المتحركة لكاليفورنيا ،اذاخذته كاميليا ليرى الحشود الضاجة الساخرة وقادته الى الضباب في الجبال .وبالرغم من انها اصبحت تنجذب اليه بصورة اقوى الا ان مخاوفها بدأت تزداد من ان يقوم بهجرها كالاخرين الذين عرفتهم في الماضي .

ويعتبر استاذ جون مكانة الصوفي بوصفه "ناشداً يطرق باب سيده ،فيسمع صوت شيخه يقول :من الطارق فيجيب الناشد" انا ياسيدي" ،فيقول معلمه :اذهب فحينما يكون هناك انا فليس ثمة مجال للتعليم وارجع حينما تكون لااحد .وكان من الصعوبة على جون ان ينبذ الصيغ والمتع التي تتسم بها الحياة العقلية ،وتطلب ذلك منه وقتا كي يعرف ان كاميليا تجسد الروح الصوفية التي تاق اليها كثيرا ولكن توقه كان من خلال الدراسة وليس من خلال التجربة .وقد ادت التطورات المذهلة التي تبعث على الرضا تماما في المقاطع الاخيرة من الرواية ان يقوم جون وكاميليا بالسفر الى ايران لاجل الحصول على لحظات صوفية حميمية تجعلهم مأخوذين بنوع مختلف من الهجر والفقدان الحقيقي.

ومن المعروف ان بيكو لاير كتب عدة مقالات وكتب منها "الروح الكونية "وهو عمل مهم في النقد الثقافي للقلق السائد الذي لم تحده حدود في عالم ما بعد الحداثة .وتعرض هذه الرواية المفعمة بالخبرة معرفة عميقة بتعقيدات الصوفية التي هي التعبير الروحي عن الاسلام.

ع/مجلة "الصحة الروحية" الامريكية

مجلات

المأمون.. عدد جديد

عن دار المأمون للترجمة والنشر، صدر العدد الجديد وهو السادس من مجلة (المأمون) الفصلية، وفي متابعة لابرز المواد التي نشرت في هذا العدد يتضح التطور الذي حصل في المجلة نتيجة لجهد العاملين فيها.

ضم العدد مجموعة من الدراسات والمقالات في الفكر والسياسة والادب والفن والطب والعلوم ومنها: مفهوم النفس في القرآن الكريم –قراءة في رواية الروائية السورية فاديا سعد –ادب الشبان الالمان –متحف الصور الطبيعية – فيتامين دي يتحدى السرطان- انقراض الطيور- اضافة لموضوعات اخرى في علم النفس والاجتماع اضافة الى ابواب المجلة الثابتة.

مسارات في عددها الثالث

صدر العدد الثالث من مجلة مسارات، وهي مجلة فكرية ثقافية يرأس تحريرها سعد سلوم.. وضم العدد مجموعة من المواضيع التشكيلية والفكرية والمسرحية والسينمائية فضلاً عن كتاب العدد "صور بغدادية" للكاتبة البريطانية فريا ستارك، ترجمة سعد الحسني. ويعد الكتاب "تسجيلاً مسحياً" للعراق في فترة الثلاثينيات تحلل فيه الكاتبة سيكولوجية كل فرد وكل بيئة وكيفية تأثيرها وتأثرها بعوامل الطبيعة مع تاكيد خاص على سلوكيات بعض الشخوص الذين قابلوا الكاتبة اثناء تجوالها ، كما جاء في مقدمة المترجم.

ففي مسار السرد، نشرت المجلة موضوعاً بعنوان مقاربة لنص تراثي ملتبس، للدكتورة نادية العزاوي، وفضاء الاسئلة الجديدة، لناظم عودة، وفي مسار الشعر هنالك نصوص شعرية لباسم المرعبي، ومحمد الامين.